- لم أعثر على جثة سائق السيارة النقل. ولم أجد هيكله العظمي. الشيء الوحيد الذي وجدته كان القفص الصدرثي فقط ملقى على الأرض، وعلى بعد عشرات الأمتار من مكان انفجار القنبلة الرهيبة زنة الخمسمائة رطل.

- فظاعة... وبشاعة... لا يمكن تصورها أو احتمالها، ولا أعرف كم من الوقت وقفت مذهولا ومدهوشا أمام بقايا هذا الإنسان البريء كل ما أتذكره هو انني كرهت الحرب. كرهت العنف قتل النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق والعدل.

- وشعرت بالخوف وكانت هذه هي أول مرة في حياتي أحس فيها بهذا الأحساس.... الذي ملأ قلبي خوفا وفزعا وقرفا من الحرب.

- **الخوف الذي عرفته لأول مرة!**

- قامت الحرب العالمية الثانية وبدأت أنباء انتصارات هتلر تصل إلينا. وكنا نذهل عند سماعها. فالدول تتساقط أمام الألمان، والهزائم تتوالى على الحلفاء وكان الشعب المصري يهتم اهتماما كبيرا بهذه الأنباء، ليس حبا في هتلر والألمان، وإنما تشفيا في بريطانيا التي تحتل بلاده وتحرمه من نيل حريته، واستقلاله.

- كان الشعب المصري يكره الإنجليز ويكره استعمارهم لبلاده. ويهلل لهزائمهم في الحرب العالمية الثانية. ونفس هذا الشعب هو الذي تخلص الآن من هذه الكراهية، عندما خرج الإنجليز من بلاده، ونال استقلاله، وأصبحت دولة ذات سيادة. وأصبحت العلاقات بيننا وبين بريطانيا – الآن– علاقات ممتازة وتقوم على الاحترام المتبادل من الطرفين. وكنت أعرف عن شعبنا هذه الصفات والخصال. وقد بدأت استغل كراهية الشعب للاستعمار والاحتلال في اتصالاتي بزملائي من ضباط القوات المسلحة، وإقناعهم بضرورة التحرك والانتشار بهدف تشكيل التنظيم السري للضباط الأحرار.

- وكان من الطبيعي أن أبحث عن زميل يمكنني الاعتماد عليه فيما لو حدث لي شيء لكي يكمل العمل وينوب عني في أي تحرك أو اتصال.

- وبحثت عن هذا الشخص من بين أفراد دفعتي في الكلية الحربية. فمن المعروف أن زملاء الدفعة يرتبطون ببعضهم ويتصادقون ويتحابون كما يرتبط ويتصادق الأخوة الأشقاء فهم يقيمون معا لفترات طويلة ويعيشون تحت سقف واحد، ويسعى كل واحد منهم إلى تحقيق نفس الهدف الذي يسعى إليه زميله وشريكه في الدفعة.

- واخترت زميلا من دفعتي هو عبد المنعم عبد الرءوف. وهو يتصف بالاستقامة والرجولة وكان محبوبا منا جميعا. وكان – فوق هذا كله– وطنيا، متحمسان ويمتلىء قلبه بالغضب والكراهية تجاه المحتل الإنجليزي.

- ولم أجد صعوبة في اقناعه بمشاركتي في العمل السري من أجل البحث عن العناصر الصالحة لتشكيل حركة الضباط الأحرار .

- وقتها كانت الحرب العالمية الثانية قد وصلت إلى حدودنا، واخترقتها وتوغلت في أراضينا.

- فقد وصلت القوات الإيطالية – المتحالفة مع ألمانيا الهتلرية، – إلى السلوم قادمة من ليبيا. وتمركزت تلك القوات في السلوم ثم انطلقت منها إلى سيدي براني– في الأرض المصرية– وتبعد عن السلوم بنحو ١٠٠ كيلو متر في اتجاه مطروح التي بتعد هي الأخرى عن سيدي براني بنحو ١٠٠ كيلو متر. أي أن مطروح تبعد عن السلوم بمائتي كيلو متر.

- ومعنى أن تتوغل القوات المعادية في أرض دولة أجنبية بنحو مائة كيلو متر. أن تلك القوات حققت نصرا خاطفا وباهرا، بأي مقياس من مقاييس الحرب النظامية. وكانت فرحة إيطاليا بهذا النصر السهل لا توصف. فدفعت بقوات ضخمة إلى الأراضي المصرية، عبر ليبيا تحرسها جوا قاذفات القنابل الإيطالية الحديثة من طراز سافويا ماركيتي، التي أثبتت فعالية قتالية من الدرجة الأولى... وكنا نراها وهي تمرق في السماء من فوقنا، فننبهر جميعا بشكلها البديع، وبريقها الاخاذ.

- توغلت القوات الإيطالية في بلادنا مدعمة بالدبابات، والفرق والمدرعات والعربات في عملية استعراضية لا مثيل لها. فلم تجد تلك القوات مقاومة تذكر من جانب القوات البريطانية حليفة الدول الحلفاء التي تقف في مواجهة دول المحور. ولم يكن للحلفاء في مصر غير قوات ضئيلة، وأسلحة تقليدية بدائية، لا تقارن بما لدى دول المحور من قوات، وسلاح حديث.

- وتكهرب الجو عندما بلغ علم الإنجليز أن القوات الإيطالية توغلت عبر السلوم ووصلت إلى سيدي براني. ووصل مع تلك القوات القائد الإيطالي الشهير جرازياني الذي كانت شهرته قد سبقته بالأساطير التي أطلقوها وأحاطوه بها.

- وأصيب الإنجليز بحالة من القلق، والارتباك.

- أما نحن فقد أسعدنا ما حدث للإنجليز على أيدي الإيطاليين . ولكن هذه السعادة كان يشوبها بعض الخوف أيضا... فإذا كنا نريد التخلص من المحتل الإنجليزي فليس معنى هذا ان نقبل أن يحل محله المحتل الإيطالي! بل أننا كنا نعرف أن الاستعمار الإيطالي هو أسوأ وأبشع استعمار في الدنيا. فالذي كان يفعله المحتل الإيطالي في ليبيا، من فظائع واستغلال وبطش، كان يصل إلى أسماعنا أول بأول . وما كان يفعله الطلاينة في ليبيا، سبق أن فعلوه في الحبشة. وخفنا أن يكرروا أفعالهم في مصر إذا اتيحت لهم فرصة احتلالها وطرد الاستعمار الإنجليزي منها!

- في هذه الأثناء كان القائد الإيطالي جرازياني قد تمركز في سيدي براني، وبدأ يقوم بغاراته على القوات البريطانية الموجودة في مرسى مطروح. تمهيدا لأحتلالها فقد كانت مرسى مطروح هي الهدف التالي لزحف القوات الإيطالية الغازية....

- وبعده يصبح الطريق أمام الزحف الإيطالي خاليا وحتى مدينة الإسكندرية!

- في هذا الوقت كنت قد نقلت للخدمة في مرسى مطروح. وهناك كانت خطة الدفاع عن مطروح تتخذ لها شلك الثلاثة قطاعات. قطاع على البحر يتولى الإنجليز مسئوليته، ويكون متصلا بواحدتهم الحربية البحرية، والقطاعان ا لآخران من الداخل، وعلى شكل القوس المحكم، لحماية مطروح من كل جانبز وتركت مسئولية العمل في هذه القطاعين للقوات المسلحة المصرية.

- ونقلت للخدمة في سلاح الإشارة بمنطقة مطروح عام ١٩٤١ . وقد اخترت لهذا العمل بعد أن نجحت في الفرقة التي انتهيت من استيعابها قبل نقلي إلى مطروح. وكان سلاح الإشارة قد زود مؤخرا بجهازيين لا سلكيين، صناعة بريطانية. الجهازالأول اسمه نمرة واحد والجهاز الثاني اسمه نمرة تسعة. والجهاز الأخير كان يعمل بطريقة المورس ويستطيع أن يتصل بالقاهرة رأسا من مرسى مطروح. أما جهاز نمرة واحد، فهو أقل حجما، وأقل فعالية. وكان يخدم المدفعية ويصلها بالقيادة. كما كانت بطاريات المدفعية تتصل فيما بينها بهذا الجهاز الصغيرز وتوليت مسئولية قسم الإشارة لخدمة المدفعية الميدانية في مرسى مطروح. وكنت أوفر لتلك القوات الاتصالات اللاسلكية بين البطاريات وباقي قطاعاتها المختلفة بما فيها المدفعية المضادة للطائرات.

- وبدأ القائد الإيطالي جرازياني غاراته المكثفة على مرسى مطروح. وكانت القاذفات الحديثة من طراز سافويا ماركيتي تقلع من سيدي براني، ومن قواعد أخرى لها في ليبيا

فقد كانت تلك القاذفة تتميز بمداها الطويل بحيث كانت تقلع من ليبيا ثم تغير فوق مرسى مطروح، لتعود بعد ذلك إلى قواعدها في ليبيا!

- وكان السلاح الجوي البريطاني في مصر لا حول له ولا قوة. حقيقة أن بريطانيا كانت قد بدأت في إنتاج قاذفاتها الحديثة– وقتذاك– من طراز لايتيننج ، ولكن تلك الطائرة لم تكن موجودة لدى قواتهم في مصر. والطائرات الحربية الوحيدة التي كانوا يستخدمونها في مصر كانت من طراز جلاديتو صذات الأربعة أجنحة! ليس هذا فقط بل وكان جسم هذه الطائرة مصنوعا من مادة خفيفة، ومغطى بالقماش اسمه " روب" وكانت مزودة بمدفع رشاش بجانب مروحة المحرك.

- وهكذا كان حال القوات البريطانية في مصر حالا هزيلا وأسلحة بدائية ولا تقارن بالأسلحة الحديثة في أيدي قوات المحور.

- ومر ٢٦ يوما على وصولي إلى مرسى مطروح، دون أن أشهد غارة واحدة من الغارات الإيطالية على مرسى مطروح وكنت قد علمت من زملائي أن الغارات كانت كثيفة، ومستمرة قبل وصولي، وفجأة توقفت . وكان الضباط والجنود غاضبين بسبب توقف الغارات الجوية. ليس حبا في الحرب، وإنما لأن توقف الغارات حرمهم من تناول الأسماك!

- وهذه قصة طريفة....

- فقد كانت القاذفات الإيطالية تغير بالقرب من مرسى مطروح، ثم تلقى بحمولتها من القنابل فوق مياه البحر عند الشاطىء، وتعود إلى قواعدها بسرعة وقبل أن تشترك في معركة جوية، وبعيدا عن القذائف المدفعية المضادة للطائرات.. وكانت القنابل التي تسقطها الطائرات الإيطالية في البحر تقتل الأسماك فتطفو على السطح فيلتقطها الجنود والضباط ويأكلونها!

- وبالطبع كان تساؤل الزملاء عن سبب توقف الغارات، يحمل سخرية من الطيارين الإيطاليين الذين كانوا يتخلصون من حمولتهم من القنابل فوق البحر ويعودون إلى قاعدتهم سالمين.....

- وبمجرد سماعهم صوت إطلاق أول قذيفة من المدفعية المضادة للطائرات! وفي اليوم السابع والعشرين، فوجئت بأول غارة جوية تقوم بها القاذفات الإيطالية من طراز سوفويا ماركيتي، منذ وصولي إلى مطروح. وأطلقت صفارة الإنذار واستمرت الغارة بعض الوقت وأفرغت القاذفات حمولتها فوق البحر، وأصابت القنابل بعض المناطق القريبة من

السهل، ثم أقلعت عائدة إلى المناطق القريبة من السهل، ثم أقلعت عائدة إلى سيدي بـــراين مرة أخرى. وأطلقت صفارة الأمان، معلنة انتهاء الغارة. وهنا بدأت مـــسئوليتي. فقمـــت وركبت سيارتي لأعاين آثار الغارة.

- وأطمئن على خطوط الاتصالات التليفونية. فمسئولية سلاح الإشارة ليست مقـــصورة على اللاسلكي فقط، وإنما تشمل أيضا توفير الاتصال التليفوني بين الوحدات العـــسكرية وبعضها.

- وكان مسموحا لي فقط بالتجول بالسيارة أثناء الغارات الجوية، والمرور على الكابلات التليفونية والتأكد من سلامتها، أثناء وبعد الغارة الجوية فأحيانا تتسبب قنبلـــة فـــي قطـــع الكابل، فيتوقف الاتصال التليفوني بين الوحدات العسكرية على الفور. وهنـــا يـــأتي دور سلاح الإشارة في سرعة إصلاح الكابل المقطوع وإعادة الاتصال التليفوني مرة أخرى.

- أعود إلى الغارة التي عشتها في اليوم السابع والعشرين على وصولي إلى مطـــروح فاذكر أنني ركبت عربتي وانطلقت في جولة لتفقد آثار الغارة خاصة أنني لـــم أتلقـــى أي بلاغات عن وقوع خلل أو قطع في الاتصالات بين الوحدات وبعضها.

- وتجولت في مرسى مطروح ولم تكن المدينة في هذا الوقت كحالها في هـــذه الأيـــام كانت خالية من المساكن إلا القليل جدا والفندق الوحيد الموجود كان صغيرا وفيما عدا ذلك كانت المدينة عبارة عن قشلاقات للقوات المسلحة تطل على البحر.

- وكنت أحدد أماكن الإصابة من الآثر الذي تركته القنابل... على الأرض وكان حجـــم كل إصابة يختلف باختلاف وزن القذيفة التي سقطت فوقه فهناك عيارات مختلفة للقنابـــل التي كانت القاذفات الإيطالية تسقطها. فهناك قنبلة زنة ٥٠ رطلا وهناك قنبلة زنـــة ٢٥٠ رطلا وهناك قنبلة زنة ٥٠٠ رطل.

- وكانت القنبلة الأخيرة تترك أثرا مخيفا. فعندما تسقط على الأرض تحدث فيها حفـــرة عميقة تمتد آثارها على شكل دائرة نصف قطرها يصل إلى ١٥٠ مترا على الأقل. واذكر في هذا اليوم ذهبت لتفقد آثار قنبلة زنة ٥٠٠ رطل قيل لي أنها سقطت وانفجرت بالقرب من سيارة نقل بضائع!

- ووصلت إلى المكان ورأيت دائرة كبيرة سوداء اللون مغطاة بالبارود وتتوسطها حفرة عميقة وواسعة وبحثت عن عربة النقل التي قيل أن القنبلة انفجرت بالقرب منها فلم أجـــد السيارة كل ما وجدته منها كان جزاء من أخشاب " الكابين" الذي يجلـــس داخلـــه ســـائق

السيارة . وفيما عدا ذلك لم أعثر على آي آثر لأشلاء العربة! ولولا وجود بقايا أخشاب كابين السائق لما صدقت أن القنبلة نسفت السيارة ودمرتها وأبادت كل اجزائها!

- وتنبهت إلى كل عربة نقل لابد أن يكون فيها سائقها والشيال فوقها فقد علمت ان الغارة حدثيت أثناء سير السيارة في الطريق فأصابتها قنبلة زنة ٥٠٠ رطل وبحثت عن السائق والشيال أو على الأقل بحثت عن جثيتهما في الدائرة الكبيرة المغطاة بالبارود الأسود المتفحم.
- ولم أجد أي آثر لهما في بادىء الأمر.
- ثم فجأة وبعد فترة طويلة من البحث والمشى فوجئت بشىء ما لم أتبينه في بادىء الأمر مغطى بالبارود وأن كان يختلف في لونه فقد كان يميل إلى اللون الأبيض المتسخ بالسواد! واقتربت من هذا الشىء لا تأكد من هويته وعندئذ كنت أمام أكبر وأفظع مفاجأة لم أكن أتوقعها .. على الإطلاق! .
- كنت أتوقع أن أعثر على الرجلين وقد إصابتهما الجروح والكسور بل كنت انتظر أن أجدهما جثتين هامدتين ولكن الشىء الوحيد الذي لم يكن يخطر على بالي ولم أكن أنتظره أو أتوقعها هو بالضبط الذي رأيته أمامي ملقى فوق البارود الأسود ومغطى به!
- رأيت أمامي على الأرض قفصا صدريا لآدمي!
- لم أعثر على هيكل عظمي لإنسان وإنما عثرت على القفص الصدري له فقط مجرد عظام هذا القفص وبلا أي عظام أو أي عضو من أعضاء الجسم البشري!
- وصعقت مما رأيته أمامي.
- ووقفت أنظر إليه مذهولا وشعرت بالخوف بل شعرت بالرعب وكانت هذه هي أول مرة أحس فيها بهذا الشعور فهناك رهبة الموت التي ما بعدها رهبة وهناك تقديس واحترام للموت فنحن وبالذات اهل الريف نحترم الموت وعندما يموت مواطن في حادث ما فإن أهله وأصحابه يبذلون كل ما في وسعهم من أجل الحيلولة دون تشريح جثته كما ينص القانون ليس هذا فقط بل أننا لا نكشف عن وجه الميت أبدا حتى لأقرب أقربائه.
- كان هذا ما فكرت فيه وأنا أنظر إلى القفص الصدري للسائق أو الشيال فلم أكن أعرف هوية صاحب تلك البقايا على وجه التحديد: الإنفجار أطاح بالجسم والبارود صهره صهرا ولم ينج منه سوى هذا القفص الصدري المفرغ من كل شىء!

- فظاعة وبشاعة لا يمكن تصورهما أو احتمالهما ولا أعرف كم من الوقت وقفت وأنا أفكر فيما أراه أمامي كل ما أتذكره هو أنني كرهت الحرب والدمار منذ هذه اللحظة ولازمني هذا الشعور حتى يومنا هذا كرهت العنف وكرهت الخراب وكرهت كل الآثار التي يتركها في النفوس.

- تركت المكان وعدت إلى عربتي وأكملت جولتي ومنظر القفص الصدري الرهيب لا يفارق أبدا مخيلتي ويكاد يشل تفكيري!

- وعدت إلى معسكري ووضعت تقرير الذي يثبت أن كل شيء يتصل بالاتصالات على ما يرام ولكن ما لم أكتبه في تقريري هو أنني فقدت كل حماس لما كنت اتصوره مباحا في الحروب وأمضيت الساعات الطويلة أفكر في مبررات الحرب – أي حرب– وفي نتائجها وهل تتوازن تلك النتيجة مهما كانت مع الخراب البشري الذي يشكل البند الأول في قائمة الخسائر والمكاسب في نهاية كل حرب؟

- وعافت نفسي الطعام.

- وأمضيت يومين كاملين لم استطع أن أتذوق لقمة واحدة فمنظر القفص الصدري كان يتجسم أمامي في كل لحظة وكنت أراه في طبقي وقبل أن أمد يدي لآكل منه.

- ولم يكن هذا هو الحادث الوحيد الذي أصابني بالقرف من الحرب فسرعان ما أوجدتني الظروف لأواجه موقفا ثانيا زاد من حجم كراهيتي للحروب والخراب والدمار.....

- ففي يوم من الأيام وكنت وقتها أخدم أيضا في مرسى مطروح طلب مني القيام بمأمورية أذهب فيها إلى برج العرب لأتسلم من هناك مرتبات الجنود الذين يخدمون في معسكري وكانت مرتبات الجنود تصل إلى خزانة في برج العرب ويذهب أحد الضباط إلى هناك ليتسلمها ويعود بها إلى مرسى مطروح.

- وبرج العرب تبعد عن الإسكندرية بنحو ٤٠ كيلو مترا فقط في حين إنها تبعد عن مرسى مطروح بنحو مائتين وخمسين كيلو مترا تقريبا.

- وركبت القطار من محطة مرسى مطروح متجها إلى الإسكندرية وهو القطار الوحيد اليومي الذي يربط بين المدينتين فهو يغادر مطروح في الساعة الثامنة من صباح كل يوم ليصل إلى الإسكندرية في الساعة الرابعة أو الخامسة من بعد الظهر.

- وتحرك القطار.....

- ولم يكن يحمل عددا كبيرا من الركاب بل على العكس كان شبه خال منهم وجلست في مقعدي بالدرجة الأولى وكان يجلس معي في المقصورة اثنان من الضباط الإنجليز.

- والطريق من مطروح بالقطار ولمسافة تصل إلى ٤٠ كيلو مترا تقريبا يسير بالقرب من البحر وكنا نرى مياه البحر من شباك القطار وكأننا نسير فوقها مباشرة. وذلك لقرب البحر من خط السكة الحديد.

- وبمجرد أن ترك القطار محطة سيدي حنيش بعد أن قطعنا مسافة تصل إلى نحو العشرين أو الخمسة والعشرين كيلو مترا من مطروح فوجئنا بسرب من القاذفات يأتي من ناحية البحر ووضح أن القطار هو الهدف الذي جاءت تلك القاذفات من أجل ضربه ونسف من فيه من ركاب وما تصورت القيادة المعادية من أنه يحمل معدات وقوات عسكرية!

- وهناك في العلم العسكري طريقة لضرب القطارات من الجو وهذه الطريقة تتلخص في أن تأتي القاذفة المعادية وتضرب القطار من أوله أي تضرب القاطرة التي يقودها سائق القطار من أوله أي تضرب القاطرة التي يقودها سائق القطار ويقف معه العطشجي الذي يرمي بالفحم في الفرن المشتعل الذي يمد القاطرة بالطاقة ثم يواصل الطيار ضرب عربات القطار الواحدة بعد الأخرى بالطول حتى نهاية القطار ولحسن الحظ أن الطيار لم يستطع أن ينفذ هذه الطريقة في ضرب القطار فقد جاء من البحر في اتجاه عمودي ضد القطار واضطر إلى أن يبدأ بضرب القاطرة ليقتل السائق ومساعده على أن يلف بعد ذلك ليبدأ في ضرب القطار من أوله وحتى آخر عربة بالمدفع الرشاش الذي يطلق طلقات معينة وقادرة على اختراق السقف وقتل من يحتمي تحته.

- وأصيب سائق القطار ومساعده.

- وتوقف القطار عن السير وعلى الفور أسرع الركاب ونزلوا من القطار وجروا للأحتماء وراء أي شيء أو بداخل أية حفرة.

- ولحسن الحظ أيضا أن المقاتلات البريطانية من طراز الجلاديتورز كانت في قاعدتها القريبة من محطة سيدي حنيش فأقلعت بسرعة وارتفعت في الجو وأصبحت فوق القطارات وأستعدت للدخول في معركة مع سرب القاذفات المعادية.

- وانسحب سرب القاذفات وانتهت الغارة الجوية وحمدناالله على إنقاذ حياتنا نتيجة لسوء تصرف من الطيار الذي ضرب القاطرة عموديا ثم أراد أن يلف ويعود لضرب القطار بالطول مما أدى أعطأنا الفرصة لمغادرة القطار وإنقاذ حياتنا.

- وبمجرد أن انتهى الخطر من حولنا غادرت مكاني وتوليت مسئوليتي على الفور فقد كنت أقدم الضباط المصريين من بين الركاب من حيث الأقدمية.

- ونظرا لأن القطار يحمل عددا من الجنود والضباط الإنجليز وكنت الضابط المصري الوحيد الموجود في القطار وتوليت مسئولية القيادة ليس فقط بحكم أقدميتي وإنما أولا بحكم مصريتي ووجودي داخل قطار مصري.

- ولم يعترض الضباط الإنجليز ووافقوا على تنفيذ تعليماتي وأوامري لمواجهة الموقف الذي أجبرنا على مواجهته وتوجهت مباشرة إلى القاطرة لمعرفة ماذا حدث للسائق والعطشجي.

- وكان المنظر مؤلما ومؤثرا للغاية....

- العطشجي مصاب إصابة قاتلة ووضح أنه مات فور إصابته بطلقات المدافع الرشاش أما السائق فقد كان جالسا متربعا أمام باب فرن القاطرة والدم ينزف بغزارة من رأسه وهو يتمايل ويقول بصوت خافت:

- " لا إله إلا الله محمد رسول الله".

- ولم يظهر على وجهه أي آثر لألم بل على العكس كان وجهه هادئا ولم يحاول أن يمسح الدماء التي تنزف من رأسه وتغطي وجهه وتسيل على ملابسه!

- وأسرعت أنادي على الركاب للحضور ومحاولة إنقاذ السائق....

- وهذا هو حديث الأسبوع القادم بإذن الله.

- **أنور السادات.**

www.anwarsadat.org